

القصة تروى بضمير المتكلم . وأول جملة يفوه بها الراوية هي : «اقتنعت أخيراً بأن عليّ أن أجد الشيخ زعللاوي» . ومن السطور الأولى نعرف أن الشيخ زعللاوي «ولي صادق من أولياء الله ، وشيال الهموم والمتاعب» . وقد تولستد القناعة لدى الراوية بضرورة العثور عليه حين ألمّ به «الداء الذي لا دواء له عند أحد» . وهذا الداء ، الأقرب ما يكون إلى داء المتصوفة ، لن نعرف المزيد من التفاصيل عنه إلا في قصة **الشحاذ** . أما في قصة **زعللاوي** القصيرة فإنه معطى لا تحليل له ، وهو ، على خطورته وعميق دلالاته الرمزية ، لا يبدو أن يكون أكثر من تبرير للقناعة التي استولت على الراوية بضرورة البحث عن **زعللاوي** والعثور عليه عله يجد لديه الدواء الشافي . والراوية لا يملك من أسباب الوصول إلى الشيخ زعللاوي غير خيط واحد : «تذكرت أن أبي قال أنه عرفه في بيت الشيخ قمر بخان جعفر ، وهو شيخ من رجال الدين المشتغلين بالمحاماة الشرعية» . ولكن ذلك كان منذ عهد بعيد . أما اليوم فإن الشيخ قمر لم يعد هو الشيخ قمر . فقد هجر خان جعفر وانتقل إلى جاردن سيتي وصار له مكتب محاماة فخيم في ميدان الأزهار^(١) ، وبات «يرتدي البدلة العصرية ويدخن السيجار ويجلس جلسة المعتد بنفسه وماله» . وكل هذه دلائل تشير إلى أنه قد طلق الدين في سبيل الدنيا وقطع كل صلة له بزعللاوي . وبالفعل ، فقد تلقى السؤال عن زعللاوي بفتور وقال لسائله عن صلته به : — كان ذلك في الزمان الأول ، وما أكاد أذكره اليوم
والحق أن من كان الشيخ قمر بات يابى الكلام عن زعللاوي

١ — سوف نرى أن الشيخ قمر نموذج بدائي لسر الحماوي فسي «الشحاذ» . فهو الآخر قد هجر الله ليصبح محامياً لأمّا في ميدان الأزهار.

بغير صيغة الماضي :

— اكان وليا حقا ؟

— كنا نراه معجزة ...

— واين يمكن ان اجده اليوم ؟

— مدى علمي انه كان يقيم بربع البرجاوي بالازهر ..

وهذا الاصرار على استخدام صيغة الماضي لا يترك للسائل من خيار غير ان يغادر مكتب المحامي المصري وهو لا يكاد يسمع للندى صوتا من طنين الخجل في اذنيه .

لكنه لم يغادره خاوي الوفاض تماما : فقد علم على الاقل ان الشيخ زعللاوي كان يقيم بربع البرجاوي بالازهر .

ربع البرجاوي بالازهر ؟ انه رمز مكثف ومباشر للدين ، او على الاقل لذلك الشكل من الدين الذي ابي ان يتطور مع الزمن . فربع البرجاوي قد «تآكل من القدم حتى لم يبق منه الا واجهة اثرية وحوش استعمل رغم الحراسة الاسمية مزبلة» . وقد اتخذ رجل من مدخل الحوش «محلا لبيع الكتب القديمة من دينية وصوفية» .

وبديهي ان الباحث عن زعللاوي لم يعثر في ربع البرجاوي على طلبته ، لانه لم يعد مكانا صالحا لاقامة الشيخ زعللاوي منذ ان عفا عليه الزمن (١) . ولهذا فان صيغة الماضي هي الصيغة الوحيدة ايضا التي يستطيع بائع الكتب القديمة ان يتحدث بها عن زعللاوي :

— زعللاوي ! يا سلام ! والله زمان ! كان يقيم في هذا

١ — سوف نرى في «حكاية بلا بداية ولا نهاية» بوجه خاص ان نجيب محفوظ داعية عنيد لتحديث الدين .

الربع حقا عندما كان صالحا للقامة ، وكان يجلس عندي كثيرا فيحدثني عن الايام الخالية ، وابتدأ بنفحاته ، ولكن اين زعبلاوي اليوم ؟

ان الزعبلاوي منفي عن عالم اليوم حتى بات الكثيرون من المعاصرين لا يرون فيه غير ذكرى من ذكريات الايام الخالية . وقد يكون هناك من يتحسر على «ايامه الحلوة» ، ولكن العدد الاكبر من ابناء العصر لم يسمع حتى باسمه . ومن سمع منهم به «يسخر منه بلا حيطة» و«ينعته بالدجل» .

بيد ان من الم " به «اللداء الذي لا دواء له عند احسد» لا يستطيع له سلوانا حتى لو سلاه العصر وانكر ذكراه . وصحيح ان اسمه قديم ، ولكن الامال التي يبعثها في النفس هي ابدا متجددة .

البحث عنه لن يتوقف اذن ، حتى وان بدت السبل اليه مسدودة جميعا . والحق ان الخيط الواهي يأبى انقطاعا . وما يزال هناك على الاقل شيخ الحارة . وشيخ الحارة لا بد ان يعرف ، على وجه التحديد لانه شيخ حارة ، ووظيفته ان يعرف . والرمز ههنا ايضا لا يخفي نفسه . فمن كانت وظيفته المعرفة ، كان العلم اسمه الحقيقي حتى وان البس جلباب شيخ الحارة . وليست هذه هي المرة الوحيدة التي يرمز فيها نجيب محفوظ الى العلم بشخص شيخ الحارة . فلسوف نرى انه سيكرر هذا الرمز في قصة **حارة العشاق** من مجموعة **حكاية بلا بداية ولا نهاية** . ولكن ماذا يعلم العلم عن زعبلاوي ؟ وهل يملك ان يقطع بيقين او ان يجزم بنفي ؟ الحق انه لو كان يملك ، فسي المرحلة الراهنة من تطوره على الاقل ، ان يقطع بيقين او ان يجزم بنفي ، لما كان امام البشرية من خيار : اما الايمان لابنائها جميعا واما اللايمان . والحال ان البشرية منقسمة بصدد هذا

الموضوع على نفسها انقساماً يكاد ان يكون حاداً (١) .
العلم اذن لا يملك لا ان ينفي ولا ان يثبت . وكذلك شيخ
الحارة . ولهذا على وجه التحديد تبدو معضلة الزعبلوي وكأنها
لا حل لها . قال شيخ الحارة رداً على سؤال سائله :
- هو حي لم يمت ، ولكن لا مسكن له . وهذا هو الخازوق .
ربما صادفته وانت خارج من هنا على غير ميعاد ، وربما قضيت
الايام والشهور بحثاً عنه دون جدوى ...
- حتى انت لا تستطيع ان تجده !
- حتى انا ! انه رجل يحير العقول ، ولكن احمد ربنا على
انه ما زال حياً ...

وتؤكد شيخ الحارة هذا بان الزعبلوي ما زال حياً هو
تأييد وتدعيم لما جاء في **اولاد حارتنا** من ان عرفة ، بخلاف
المزاعم والشائعات والصيحة النيتشوية ، لم يقتل الجبلوي .
والقتل على كل حال ، وعلى فرض انه وقع ، اقرار بوجود
القتيل . والحق ان معضلة الزعبلوي تخرج عن نطاق اختصاص
شيخ الحارة . فشواظله هي من طبيعة اخرى . صحيح ان العلم
بدا في فترة الاندفاع الاول وعهد الشباب وكأنه قد وجد الجواب
لكل سؤال ، ولكنه مع تراكم التجارب والخبرات وخمود فورة
الشباب ، زاد تواضعاً وأشاح عن الاسئلة الميتافيزيقية الكبرى
ليحصر كل همه بمشكلات عينية هي ، على جزئيتها وتواضعها
النسبي ، في غاية النفع للناس والحضارة . ولعل هذا ما يشير
اليه شيخ الحارة حين يقول للباحث عن زعبلوي :

١ - انقسام تشهد عليه النكتة التي راجت بعد اقتحام الانسان لعالم
الفضاء للمرة الاولى في التاريخ . فقد قيل ان رائد الفضاء السوفياتي بحث
في كل مكان من الكون عن الله فلم يجده ، وان رائد الفضاء الاميركي ماين اتى
اجال الطرف في الكون دليل وجوده ومظننه .

— انا في الواقع لم اُره منذ سنوات ، وشغلتنى عنه
شواغل الدنيا ، وقد أعادني سؤالك عنه الى أجمل عهد
الشباب ...

وفي ختام المقابلة يجمل شيخ الحارة الموقف النهائي للعلم
حين يعطي الباحث عن زعبلاوي خريطة للكون ويقول له ابحث
عنه بنفسك . فما الجدوى من خريطة اذا كان من الواجب ان
يتم البحث على مستوى الكون بأسره ؟

لكن اذا كان العلم لا يستطيع كبير شيء للباحث عن
زعبلاوي ، فهل تنتفي كل السبل الاخرى الى معرفته والوصول
اليه ؟ الواقع ان العلم لا يستغرق جميع انواع المعرفة ، فالغن
ايضا نوع من المعرفة ، وان من طبيعة خاصة . والباحث عن
زعبلاوي لا بد ان يطرق هذا الباب فيما يطرقه من ابواب .
ولقد قيل له ان حنين الخطاط كان صديقا له . ولقد كان
بالفعل صديقا له ، ولكنه ما كان يزوره في مواعيد ثابتة :

— زعبلاوي ! يا سبحان الله ! الرجل اللغز ! يقبل عليك
حتى يظنوه قريبك ، ويختفي فكانه ما كان ... في وجهه
جمال لا يمكن ان ينسى ... وبفضله صنعت أجمل لوحاتي .
وليس حنين الخطاط هو وحده الذي يؤكد ان زيارات
زعبلاوي تأتي في مواعيد غير ثابتة ، تماما كالحظات الالهام
الفني ، بل يؤكد ذلك ايضا الملحن الموسيقي الشيخ جاد :
— زارني منذ مدة ، وقد يحضر الان ، وقد لا اراه حتى

الموت !

والشيخ جاد يؤكد هو الآخر ان زعبلاوي قد الهمه أجمل
الحانه ، ولكن الالهام لا يأتي عفو الخاطر ، بل لا بد له من كد
شديد . عذاب مضن ، و«هذا العذاب هو من ضمن العلاج» ،
ولا مفر من ان يتعذبه كل من اراد زعبلاوي . عذاب السعي ،
وعذاب الشك معا ، ولاسيما في العصر الحديث ، العصر الذي

قدم الشك على اليقين ، ورسم علامة استفهام حول كل ما هو قديم قدم زعبلأوي :

... هذا الرجل العجيب يتعب كل من يريده . كان امره سهلا في الزمان القديم عندما كان يقيم في مكان معروف ، اليوم الدنيا تغيرت ، وبعد ان كان يتمتع بمكانة لا يحظى بها الحكام بات البوليس يطارده بتهمة الدجل ، فلم يعد الوصول اليه بالشئ اليسير ، ولكن اصبر ، وثق انك ستصل .

ولكن اليس الى الزعبلأوي طريق اقصر واقل مشقة من طريق الفن وعذابه وشكوكه ونزواته ومواعيد وحيه غير الثابتة ، ولاسيما بالنسبة الى من اشتد عليه الداء وأعياء الدواء حتى بات لا يطيق صبرا ؟

ان مثل هذا الطريق يمكن ان يوفره يقين القلب والحدس ، ذلك الشك الاولي والبدائي من المعرفة . ففي ذروة الوجد الصوفي يمكن للانسان ان يعانق المطلق . ولكن ماذا يحدث حين تتبخر النسوة ؟ الا يتبخر معها موضوعها ومطلقها ؟

لقد وجد صاحبنا الباحث عن زعبلأوي نفسه مضطرا الى ان يطرق باب المعرفة البدائي هذا اذ لم ترو ظمأه اشكالهسا الراقية المتمثلة في العلم والفن . فقد قيل له ان زعبلأوي يتردد في هذه الايام على الحاج ونس الدمنهوري . ولكن الحاج ونس هذا سكير خطير لا يفرغ كأسا حتى يترع اخرى . وهو يأبى ان يفتح فاه بكلمة وان يتصل بينه وبين مجالسه كلام الا اذا اخذته نشوة السكر مثله . فيبدون ذلك يخلو «المجلس من اللياقسة» و«يتعذر فيه التفاهم» .

وغني عن البيان ان الخمرة هنا ، كما عند جميع المتصوفة ، رمزية . ولكنها ككل خمرة لا تؤدي مفعولها الا في حال الغيبوبة وانعدام الوعي . ولا يجد صاحبنا الباحث عن زعبلأوي بلدا من التسليم بشروط الحاج ونس ، واعداء اياه بالا يسأله عن صديقه الا بعد ان يعب كأسا اولى وثانية وثالثة ورابعة . ولكنه عقب